المَحَجّة | العـــدد الثلاثـــون ٢٠١٥
مجلّـــة تُعنــــى بشــــؤون الفكــر الدينيّ والفلسفـــة الإسلاميّـــة

المشرف العـامّ ورئيس التحرير: شفيـــق جــــرادي

إدارة التحريـــــر: بـاسمـة دولانـــي، فاطمة محمّد زراقط

المديـــر المسؤول: بـــدري معاويـــة

الهيئـــة العلميّـــة: أحمـــد ماجـــد، علـــيّ يوســـف، حبيـــب فيـــاض، علـــيّ الموسوي، حسيـن إبــراهيم، محمّـــد زراقـــط، سمير خيــر الدين، مصطفى الحاجّ عليّ

الهيئــة الاستشاريّة: غلام رضا أعواني، جـــاد حاتـــم، نــــادر البـــزري، محمّد تقي السبحاني، سعـــاد الحكيـــم، محمّـــد مصبـاحي

إخـــراج فنّـــيّ: IDEA CREATION Advertising Agency

رسالة معهد المعارف الحكميّة: معهد المعارف الحكميّة (للدراسات الدينيّة والفلسفيّة) مؤسّسة بحثيّة تعليميّة، تنشط في الحقل الفكريّ من أجل توفير حضور فاعل في الوسط العلميّ والثقافيّ، وتجسير التواصل بين الاتّجاهات الدينيّة والفكريّة، من خلال الدراسات المعمّقة والتعليم التخصّصيّ، والأنشطة والنشر.

ضوابط النشر في مجلّة المحجّة: تنشر المحجّة الأوراق العلميّة والمقالات الفكريّة التي تتحقّق فيها الأصالة بحيث لا تكون قد نشرت سابقًا، أو مقدّمةً للنشر في مكان آخر؛ تتولّى الهيئة العلميّة في المجلّة تحكيم المواد المقدّمة وترجيحها، على أن تبقى أسماء المحكّمين والكتّاب غير معلنة؛ يحقّ لإدارة التحرير إجراء التعديلات المناسبة على البحث بشكل منفرد أو بالاتّفاق مع الباحث؛ تُرفق جميع المساهمات بملخّص لا يزيد عن ١٥٠ كلمة، ولا يتمّ قبول الأبحاث التي لا تستوفي الشروط المبيّنة أعلاه. وتحتفظ دار المعارف الحكميّة بكامل حقوق الطبع والنشر للموادّ التي يتمّ نشرها في المجلّة.

ما يُنشر في المجلّة يعبّر عن رأي صاحبه ولا يعبّر بالضرورة عن رأي المجلّة.

تُرســـل الاشتـــراكات والمراســـلات باسم رئيـــس التحريـــر علـــى العنـوان التـالـي:
معهـــد المعـــارف الحكمـيّـــة (للدراســـات الدينيّـة والفلسفـيّـــة)
لبنـــان - الحـدث - سـانـت تيريـز - سنتر يحفوفـي - بلـوك C - الطابـق الثالـث
أو عـلـى رقـــم الحســـاب: بنـك عـــودة 59129946100206401
almahajja@shurouk.org
00961-5-462191 / 00961-1-544622/1

ISSN: 2224-1094

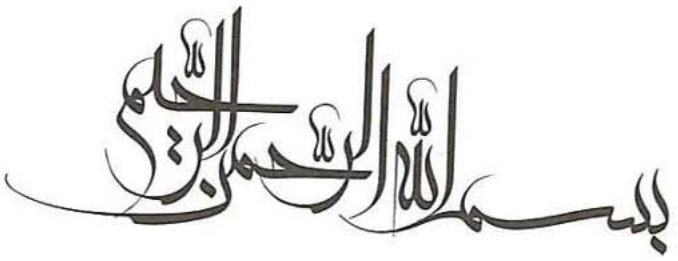

المَحَجّة

العـدد الثلاثون ٢٠١٥

الألم في الأدبيّات المسيحيّة

سليم بسترس[1]

الألم جـزء من حياة الإنسان، من كيانه، ومن طبيعته البشريّة: إذ هو كائن روحيّ جسديّ. للإنسان بعديـن، باطنـيّ وخارجيّ، والألم الذي يحـلّ في البعد الباطنيّ على مستـوى المشاعر أعمق بكثير مـن الألم الذي يصيب الجسد الخارج. ليـس الألم عقابًا إلهيًّا، إن هو إلّا علامة على ضعف الإنسان ومحدوديّتـه. في أثنـاء البسط لمبحـث الألم يجب أن لا نبحث فيه بما هو هو، بـل بما هو علامة على الضعـف والمحدوديّة، كليهما. يظهر موقـف الإنسان الرحيم تجاه المتألّم مجـد الله ومحبّته للإنسان. وهكذا، يشارك المسيحيّ بالمعموديّة مسيرة المسيح بالحياة والموت والقيامة، انطلاقًا من عيد القيامة بمـا هو انتصار على الموت والألم. إنّما الألم الأكبر هـو أن نتخلّى عن أنانيّتنا لنصلبها مع المسيح لننال ظفر القيامة.

المفردات المفتاحيّة: الطبيعة البشريّة؛ الزمن؛ المحدوديّة؛ المحبّة؛ الفداء؛ الرجاء؛ صورة الله؛ الكلمة.

١. الألم والطبيعة البشريّة

الـكلام عـن الألم هـو، في الواقع، كلام عن طبيعـة الإنسان. في صلاة الجنّـاز نقول: «أيّها المخلّص، بعد أن نظمت جميع الكائنات، جبلتني أنا الإنسان حيًّا مركّبًا متوسّطًا بين الضعة والرفعـة». في هـذه الصلاة نصف كيـان الإنسان في كامل حقيقتـه، فالإنسان كائن حيّ، متوسّـط بين الضعـة والرفعة، فهو من جهة جسده متلبّس الضعـة، أي الضعف والألم، وفي النهايـة الموت. أمّا من جهة نفسه وروحه فيتميّز بالرفعة، أعني بصورة الله التي خلق عليها،

(١) متروبوليت بيروت وجبيل وتوابعهما للروم الملكيّين الكاثوليك.

تؤمن المسيحيّة بأن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله. هذه الصورة هي في روحه، فجسده مائت، بحسب قول **الكتاب المقدّس**: «أنت تراب إلى التراب تعود»[٢]. أمّا روحه، فلأنّها خلقت على صورة الله، فلا يمكن أن تفنى.

من أين يأتي الألم؟ الإنسان كائن لا يملك غايته في ذاته. إنّه يحيا مع أناس آخرين وهو مرتبط بمحيطه وبالمجتمع الذي يتحرّك فيه بألف طريقة وطريقة. ولأنّ الأمر يتعلّق بكيان الإنسان بالضبط، فالإنسان منفتح من ذاته على أمور كثيرة وعلى أناس كثيرين. هذا الانفتاح وهذه الحاجة إلى الغير يحدّدان الإنسان في ثنايا جسده كلّها، وخلجات نفسه كلّها. لذلك يجب التعريف بحياة الإنسان على أنّها طريق يعبر العالم، وتحدّد معالمه اللقاءات المختلفة مع سائر الناس. وبذلك هو معرض لأمور كثيرة، والألم جزء من حياته. والمحاولة الخياليّة لمنع الألم كلّيًّا عن الإنسان تعني التخلّي الجذريّ عن اندماجه بالعالم وعن إمكانيّات الاتّصال بسائر الناس. ومن ثمّ فالتعرّض للألم هو جزء من الإنسان ومن كيانه الجسديّ – النفسيّ، وبما أنّ الإنسان، بسبب طبيعته الجسديّة – الروحيّة، هو في ذاته متعدّد الأبعاد، ينتج من ذلك أنّ تعرّض الإنسان للألم يرتدي أشكالًا كثيرة التنوّع.

أ. **الإنسان جسد، الإنسان كائن جسديّ**. ولذلك هو في علاقة تداخل ماديّة مع محيطه، وهو معرض لمختلف التأثيرات التي يمكن أن تصيبه مباشرةً. فالعذابات الجسديّة هي الأشكال التي ترافق مثل هذا النوع من الألم. ولكن يدخل أيضًا في طبيعة الإنسان الجسديّة شكل مميز جدًّا من الكيان الجسديّ «الباطنيّ»، وهو يظهر على نحو ما في المشاعر. فالإنسان ليس أسير طبيعة جسديّة من النوع الخارجيّ وحسب. فجسده وسلوكه الجسديّ يتوجّهان بالحريّ إلى مجمل الأوضاع المحيطة به، فيحسّ بها. إنّها تثير فيه صدًى، ومن ثمّ يستطيع أن يشعر بالألم والفرح، بالراحة والانزعاج، أن يكون في حالة انقباض أو انشراح. وثمّة في هذا الأمر علاقات تبادل وارتباطات في جسد الإنسان بين تعرّضه للألم الجسديّ وتعرّضه للألم الباطنيّ.

يستطيع الإنسان، بالضبط بصفة كونه معرَّضًا للألم في جسده، أن يسلك سلوكًا واعيًا ومسؤولًا. الإنسان منفتح على أن يضع له أهدافًا بحرّيّة، ولكنّ هذا الانفتاح بالضبط هو

(٢) سفر التكوين، ٣: ١٩.

أيضًا شكل خاصّ مـن التعرّض للألم. فالإنسان، من حيث كونه يتمتّع بإرادة حرّة، معرّض للإخفاق الممكن، ويختبر بألم الحدود والشروط التي تفرضها عليه الظروف، ويعاني المقاومة والرفض والنزاعات ويعجز عن تحقيق مشاريعه وتنفيذها.

هـذا الانفتاح بالضبط، الذي يعـود إلى الإنسان بصفته كائنًا عاقلًا، يعنـي أيضًا تعرّضًا خاصًّـا للألم. فإذا استطاع الإنسان، بالضبط بسبب عقله، أن يفهم الارتباطات، ويستجلي الأوضاع، ويجد حلولًا للمشاكل، ويحدّد أسباب ما يحدث في الواقع، فمجمل سلّم هذه القـدرات يعني أيضًـا في الوقت عينه إمكانيّات ألم كثيرة يمكن أن تنـوء بثقلها على الإنسان أكـثر من العذاب الجسديّ. يشير التعبير الشائع، متاعب القلب، إلى شكل عميق من انفتاح الإنسـان وتعرّضه للألم. فالإنسان منفتح بعمق إلى حـدّ أنّه يمكنه أن يجعل ممّا يصيب الناس الآخرين أمورًا تخصّه شخصيًّا. وهو ليس منفتحًا على الآخرين وحسب. بل يمكنه أن يضع نفسـه في وضـع الآخرين، ويكون حقًّا معهـم. وهكذا يحيا في خدمـة الآخرين في عطاء الـذات والمحبـة. الآخر، أو الآخرون، هم في كلّ حين مركـز حياته. من مثل هذا الانفتاح الذي يتيح للإنسان أن يثبّت قدمه إلى جانب الآخر ويعود إلى نفسه انطلاقًا منه، فينتج شكل خاصّ من التعرّض للألم يتميّز به الإنسان. وبناءً على هذا الانفتاح وهذا التعرّض للألم، يمكنه ليـس أن يتـألّم من أنّ الآخر يرفضه الجواب وما يتضمّنه مـن اعتراف، فحسب، بل يمكن أن يصيبـه الألم الذي يصيب الآخر. ومـا يصيب الآخر يمكن أن يؤثّر في الآخر. فالإنسان ليس معرّضًـا للألم وحسـب، بل هو أيضًا قادر على أن يتألّم معه. وبهذا يتضاعف تعرّضه للألم إلى مـا لا يقاس. فألم الأولاد يسبّب متاعب القلب للأب أو للأمّ، وهذه المتاعب يمكن أن تكون أشدّ ألمًا من أيّ عذاب آخر أو خيبة أمل أو شعور بالعجز يصيبهما.

ب. **الطابع الزمنيّ**. إنّ تعدّد أبعاد الانفتاح الإنسانيّ على العالم والتعرّض للألم الكثير الأشكال المرتبـط به يتّسمـان كلّيًّا بالطابع الزمنيّ. فحياة الإنسان هي حيـاة في الزمن. وهذا لا يعني أنّـه يقضـي حياته في نطـاق مساحة من الزمن فحسـب، بل إنّ الوقت مـن ماض وحاضر ومستقبـل، يؤثّـر في تكوينـه داخليًّا في نواحي كيانـه كلّها. وهذا يعنـي أنّ جسده عرضةً للتغيـرات الزمنيّة، فيكون أوّلًا شابًّا ثـمّ يتقدّم في السنّ. وتطبعه الأحداث السابقة بطابعها الخاصّ. فهي تترك آثـارًا، وآثار الجـروح تبقى. ويدفعـه المستقبل الذي يتجـاوز اختياره ويحرّكه شاء أم أبى. هكذا يحمل الإنسان في طبيعته الجسديّة علامة الزمن، بحسب الماضي

والحاضر والمستقبل، والزمن هو دومًا بالنسبة إليه زمن محدود، ماضٍ معيّن، وحاضر واقعيّ، ومستقبل خاصّ، وهو بالتالي وفي الوقت عينه شكل واقعيّ من اختبار الحدود، ومعاناة فرديّة قصوى.

ومن ثمّ فالمشاعر الحاليّة تتأثّر في الباطن بما سبقها من أوقات سعيدة أو مؤلمة. واتّجاه المزاج في المستقبل يتغذّى بصورة أساس من المشاعر السابقة، مشاعر النجاح والإخفاق، والرجاء والاستسلام للأمر الواقع. ولكون الإنسان كائنًا عاقلًا، فكلّ استخدام للعقل يتّسم أيضًا بطابع الاختبار التاريخيّ، وبالحدود والعقبات، والألم وخيبات الأمل.

ج. **المرض والموت**. نسمع بعض الناس، وقد ابتلوا بمصيبة، يقولون ماذا فعلت من شرّ لكي يضربني الله؟ وفي ظنّهم أنّ الألم هو نتيجة خطيئة الإنسان، وأنّ الله يقاصصهم بالمرض أو بالموت. التقى يسوع يومًا برجل ولد أعمًى فسأله تلاميذه: من أخطأ؟ هل هذا أخطأ أو أبواه حتّى ولد أعمًى؟ فأجابهم يسوع: لا هو أخطأ ولا أبواه[٣]، المرض والألم ليسا قصاصًا على خطيئة ارتكبها الإنسان.

فالموضوع لا يتعلّق بالسبب، أي بالسؤال عن «لماذا»؟ بل ما هو موقفنا اتّجاه هذا الواقع، واقع محدوديّة الكائن البشريّ المخلوق؟ يمكن أن نتّهم الله ونتشكّى: كيف يسمح الله بمثل هذه الأمراض والآلام؟ الله لا يريد ولا يسمح بالمرض والألم. المرض والألم هما علامة ضعف الكائن البشريّ وعلامة حدوده. فعلينا أن نقبل المرض والألم على أنّهما علامة ضعف الإنسان ومحدوديّته. ولكن لا ينبغي أن نكتفي بقبول هذا الواقع، كما لم يكتفِ السيّد المسيح بهذا الواقع. جواب السيّد المسيح ليس جوابًا نظريًّا بل هو جواب عمليّ، فيقول: «لا هو أخطأ ولا أبواه. بل ليظهر مجد الله فيه»[٤]. ومجد الله، أي قدرة الله ومحبّته، ظهر في شفاء هذا الأعمى. فواجبنا نحن البشر لا يقوم بالجواب على مسألة الألم والمرض، بل بعمل ما بوسعنا لشفاء المرضى والتخفيف من آلامهم ومرافقتهم لنظهر لهم أنّ ألمهم ليس دليل عدم محبّة الله لهم. فبمحبّتنا لهم ومرافقتنا إيّاهم في مرضهم نجسّد محبة الله. فكما أنّ المسيح، كلمة الله المتجسّد، جسّد في حياته محبّة الله للناس جميعًا، ولا سيّما للضعفاء والمرضى، هكذا يدعونا إلى متابعة رسالته مع المرضى والمتألّمين. وهكذا يظهر مجد الله فيهم، مجد الله لا

(٣) للمزيد، انظر، إنجيل يوحنّا، ١: ٩ إلى ١١.
(٤) المصدر نفسه، ٩ و ١٠.

يظهـر في المرض نفسه والألم عينه، كأنّ الله هـو الذي يرسل المرض والألم. بل مجد الله يظهر في المحبـة التـي بها نعامل المرضى والمتألّمين، هذا ما يعنيه **ملكـوت الله** الذي جاء يسوع يبشّر به. يتحقّق ملكوت الله عندما تظهر في العالم محبّة الله للعالم. ومحبّة الله للعالم لا يمكن أن تظهر إلّا من خلالنا نحن، كما ظهرت من خلال يسوع. في **الإنجيل المقدّس** مقاطع كثيرة تدلّ على أنّ يسـوع جاء بنوع خاصّ ليظهر محبة الله من خلال اهتمامه بالفقراء والمرضى. هكذا نقرأ في **إنجيل متّى**:

> وكان يسوع يطوف كلّ الجليل يعلّم في مجامعهم، ويكرز ببشارة الملكوت، ويشفي كلّ مرض وكلّ ضعـف في الشعب، فذاع خـبره في سورية كلّها. فأحضروا إليه جميـع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة، والمجانين والمصروعين والمفلوجين، فشفاهم(٥).

لكي يتمّ ما قيل بأشعيّا النبيّ القائل: «هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا»(٦).

المهـم أن لا تنقص المحبّة. الألم في مختلـف أنواعه تحدّ على الإنسـان أن يجابهه بواقعيّة وشجاعـة ومحبّـة: (١) بواقعيّـة فيقبـل واقعـه المحـدود، و(٢) بشجاعة فـلا يضعف أمام الصعوبة، و(٣) بمحبّة فلا يهمل ما هو أساس في الحياة.

يتجسّـد ابن الله في شخص يسوع المسيح، صار كلّ إنسان صورة المسيح ابن الله: «كلّ مـا تصنعونه لأحد إخوتي هؤلاء الصغار فإليّ تصنعونـه»(٧). كم من أصحّاء جسديًّا يتألّمون نفسيًّـا. فهؤلاء أيضًا بحاجة إلى شفاء. الكنيسة هي إلى جانب المريض المتألّم، فتظهر للجميع محبّة الأم لأولادها. هذه أكبر تعزية للمريض أو المتألّم، أن يرى أناسًا يحبوّنه كما هو: كمريض أو متألّم جسديًّا أو نفسيًّا.

نحن كلّنا حجّاج نحو الملكوت السماويّ: اليوم أصحّاء، ربّما غدًا مرضى، وفي النهاية نحـن مائتون. نحمل في جسدنا المائت سمـات آلام بإيمان نشارك المسيح في آلامه، وتصير آلامنـا إسهامًا في فداء العـالم مع المسيح. نفتديه من خطيئة الأنانيّـة، وخطيئة التمسّك بهذا العـالم كأنّه دائم، وخطيئة إهمال التفكير بحياة المجـد السماويّ الخالدة، التي هي وحدها

(٥) إنجيل متّى، ٤: ٢٣ و٢٤.
(٦) المصدر نفسه، ٨: ١٧.
(٧) المصدر نفسه، ٢٥: ٤.

الحياة التي لا نهاية لها.

٢. يسوع المسيح افتدى العالم بآلامه وموته

إلى جانب الألم الناتج عن ضعف الطبيعة البشرية، ثمّة ألم يسبّبه الناس بعضهم لبعض. فالنزاعات بين الأفراد والحروب بين الدول هي أكبر سبب للألم في العالم نتيجة الأطماع البشريّة.

وثمّ بنوع خاصّ ألم الإنسان البريء. إنّه ألم السيّد المسيح الذي جاء ينشر ملكوت الله، لكنّ اليهود رفضوا بشارته وتآمروا عليه وقتلوه. قاد اليهود الذين قبضوا على يسوع إلى بيلاطس الوالي الروماني. فسأله بيلاطس: «هل أنت ملك؟» أجابه يسوع: «إنّ مملكتي ليست من هذا العالم. جئت أشهد للحقّ»[٨]. جاء الأنبياء كلّهم ليشهدوا للحقّ، ولكنّ الناس الأشرار لا يريدون أن يسمعوا كلمة الحقّ التي تهدف إلى ردعهم عن الشرّ وعن الظلم.

تؤمن المسيحيّة بأنّ يسوع المسيح قدّم ذاته ذبيحةً عن العالم، وأنّه، بآلامه وموته، افتدى العالم من الخطيئة ومن الألم ومن الموت. إنّه «حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم»[٩]. إنّ الذبائح التي كان يفرضها العهد القديم كانت وسائل بشريّةً يقوم به الناس ليكفّروا عن خطاياهم. لكن «من المحال أنّ دم ثيران وتيوس يزيل الخطايا» كما تقول **الرسالة إلى العبرانيّين**، ثمّ تضيف:

> فذلك يقول المسيح عند دخوله العالم: ذبيحةً وقربانًا لم تشأ؛ غير ذلك هيّأت لي جسدًا. لم ترتض محرقات ولا ذبائح خطيئةً؛ حينئذ قلت: ها أنا ذا آتي [...] لأعمل، يا الله، بمشيئتك. وبقوّة هذه المشيئة قدّسنا نحن بتقدمة جسد يسوع مرّةً لا غير[١٠].

إنّ ما لم تستطع أن تقوم به ذبائح القديم، أعني التكفير عن خطايا البشر، قد قام بهما يسوع بتقدمة ذاته على الصليب. إنّ الناس، بسبب وضعهم المائت ومحدوديّتهم، عاجزون عن أن يعبدوا الله العبادة الحقّة. لذلك صار ابن الله إنسانًا وحمل البشريّة كلّها في ذاته، وبطاعته الله، الآب، وبذل ذاته حتّى الموت، موت الصليب، أزال عصيان البشر وخطيئتهم،

(٨) إنجيل يوحنا، ١٨: ٣٧ و٣٨.
(٩) المصدر نفسه، ١: ٢٩.
(١٠) الرسالة إلى العبرانيّين، ١٠: ٤ إلى ١٠.

وهكذا قدّم الله الآب ذاته والبشر أجمعين ذبيحةً كاملةً. بذلك «حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم»[١١].

٣. من الألم إلى السعادة الأبديّة

إنّ ما ندعوه «العيد الكبير» في المسيحيّة هو عيد قيامة السيّد المسيح من بين الأموات إلى حياة المجد مع الله. وندعوه أيضًا عيد الفصح، تعني هذه الكلمة المرور من الموت إلى الحياة. وهذا العيد هو عند اليهود عيد مرورهم مع النبيّ موسى من مصر إلى أرض الميعاد، أي من العبوديّة إلى الحرّيّة ليعبدوا بحرّيّة الله الحيّ. فالسيّد المسيح، من بعد موته، قام في اليوم الثالث، أي بعث حيًّا، بحسب التعبير القرآنيّ. أمّا البراهين على قيامة يسوع من بين الأموات فتستند إلى ما يرويه **الإنجيل المقدّس** بأنّه تراءى حيًّا لتلاميذه من بعد موته وقيامته. إنّ إيماننا بالقيامة يرتكز على شهادة الرسل، الذين يدعوهم **القرآن** بـ«الحواريّين»، الذين عاشوا مع المسيح، وشاهدوا صلبه، وتراءى لهم حيًّا من بعد قيامته، وراحوا يبشّرون العالم الرومانيّ بهذه القيامة. وكان موجز تبشيرهم لليهود القول التالي: «إنّ الذي صلبتموه، أيّها اليهود، قد أقامه الله من بين الأموات، ونحن شهود على ذلك».

السيّد المسيح هو صورة الله الكاملة، هو كلمة الله الذي عندما تجسّد أخذ كلّ شيء من ضعف الطبيعة البشريّة ما عدا الخطيئة، فتألّم ومات، ولكنّه قام من الموت باكورة الراقدين. والمسيحيّ منذ معموديّته يتّحد بموت المسيح وقيامته. فعلى الرغم من أنّنا متلبّسون الضعف والمرض، وفي النهاية الموت، نؤمن بأنّنا، بسبب اتّحادنا بالمسيح بالمعموديّة، سنقوم، بعد موتنا، إلى حياة المجد وننعم بالوطن السماويّ الذي هو وطننا النهائيّ.

عيد القيامة عندنا هو عيد الانتصار على الألم وعلى الموت. فلا حياة من دون موت، ولا قيامة من دون صليب. لا حياة من دون موت. هذا ما يريد السيّد المسيح أن نعلّمه للناس جميعًا: «إنّ حبّة الحنطة الواقعة في الأرض إن لم تمت تبقى وحدها، وأمّا إن ماتت فإنّها تأتي بثمر كثير»[١٢]. الإنسان من بطبيعته يميل إلى الأنانيّة وحبّ الذات. ويلجأ إلى

(١١) إنجيل يوحنّا، ١: ٢٩.
(١٢) المصدر نفسه، ١٢: ٢٤.

مختلـف الوسائل للسيطرة على الآخرين واستغلالهم لمصلحتـه الشخصيّة. هذه الأنانيّة هي أصل النزاعات بين الناس، وأصل الحروب بين الدول. علّمنا يسوع رسول المحبّة بموته على الصليـب أنّه «ليس لأحد حبّ أعظم من أن يبذل الحياة عن أحبّائه»[١٣]. ولا قيامة من دون صليـب. علّمنـا يسوع، رسول السلام، بصليبه أنّه لا بدّ للناس من أن يتخلّوا عن أنانيّتهم، ويصلبوا أهواءهم وشهواتهم، للوصول إلى القيامة والعيش معًا بسلام، بحسب قول بولس الرسـول: «إنّ الذين هم للمسيـح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات»[١٤]. المسيح هو سلامنا. فقد مات عن البشر جميعًا ليصالحهم بعضهم مع بعض، ويجعل منهم جميعًا، كما يقول بولس الرسول: «إنسانًا واحدًا جديدًا بإحلاله السـلام بينهم، ويصالحهم مع الله في جسد واحد، بالصليب الذي به قتل العداوة»[١٥].

٤. الحياة بموجب الإيمان المسيحيّ ومضايق هذا الزمن

تعنـي الحياة بموجب الإيمان المسيحيّ الاعتراف بشكـر، وذلك بمثابة أساس للحياة، بعطف الله كمـا تجلّى في يسـوع المسيح وأصبح حقيقةً في آلامه، وبتمجيده اللاحق من قبل الآب. وهكـذا فإنّ لدى جماعة المؤمنين، أي الكنيسـة، وكذلك المؤمنين الأفراد، نظرةً مميّزةً جدًّا في مسألة الخطيئة والألم في التاريخ.

١. لا يحجـب الإيمـان المسيحيّ الخطيئة والشرّ في التاريـخ ولا يبرّرهما، كما أنّه لا يتغافـل عن ألم الإنسان: بل بخـلاف ذلك فإنّ إيلاء هذه الحقائـق أهمّيّةً مطلقةً هو جـزء من الإيمان المسيحيّ. يتّسم الإيمان بطابع هذا الاعتناق الإلهيّ الجدّيّ للخطيئة والألم، كما تبيّن جسديًّا في يسوع المسيح.

٢. إلى هنـا إلّا أنّ الإيمان المسيحيّ يرتكز على رجـاء لا يتزعزع. فيعلم المؤمنون أنّ آلام يسـوع التكفيريّـة قد برّرتهم وصالحتهم مع الله. ويعلمـون أنّ الله يأتي بلا قيد ولا شرط إلى كلّ مؤمن، وهو قريب منه قربًا لامتناهيًا في استعداده للمغفرة. وبذلك

(١٣) إنجيل يوحنّا، ١٣:١٥.
(١٤) غلاطية، ٥:٢٤.
(١٥) أفسس، ٢:١٤ إلى ١٦.

يفقد التاريخ، بالنسبة إليهم، ازدواجيّته الواضحة. التاريخ، بالنظر إلى تورّطه في الشرّ، لم يعد محكومًا عليه بالفشل. بل يترك لدينونة الله الرحيم الغفور. لذلك فإنّ طريق الألم عبر الزمن هو حجّ في الرجاء: الرجاء بخلاص الإنسان استنادًا إلى رحمة الله.

٣. في هذا الاعتراف الشاكر بحدث الله وفي ما يتضمّنه من اتّباع ليسوع المسيح في بذل الذات معه، يطلب من المؤمنين أن يلتفتوا، على غرار يسوع، إلى المتألّمين، ليخفّفوا من آلامهم ويقدّموا لهم التعزية والرجاء: «كلّ ما صنعتموه لأحد هؤلاء الصغار، الذين هم إخوتي، فإليّ قد صنعتموه»[١٦].

خلاصة

استنادًا إلى قيامة المسيح، نؤمن نحن المسيحيّون بأنّ الألم الذي نعانيه على هذه الأرض ليس نهاية كلّ شيء. بل ثمّة حياة أبديّة مع الله، وهي المصير الأخير لكلّ إنسان يعمل الصالحات. مهما كبرت آلامنا في هذه الحياة يبقى رجاؤنا بالقيامة أعظم. هذا الرجاء بالقيامة هو كنزنا الحقيقيّ، بحسب قول السيّد المسيح: «يشبه ملكوت السماوات كنزًا دفينًا في حقل. فالرجل الذي وجده أخفاه. ومن فرحه مضى وباع كلّ ما له واشترى ذلك الحقل»[١٧]. هذا هو كنزنا. لكنّ هذا الكنز، كما يقول بولس الرسول، «نحمله في آنية من خزف، لكي يتّضح أنّ هذه القدرة الفيّاضة هي لله وليس منّا»[١٨]. ثمّ يضيف واصفًا الآلام الذي يتعرّض لها المؤمن:

نحن مضايقون من كلّ جانب، ولكنّا لا ننحصر، حائرون ولكن غير يائسين، مضطهدون، لكن غير متروكين، مطروحون، لكن غير هالكين، نحمل في الجسد كلّ حين موت الربّ يسوع، لتظهر حياة يسوع أيضًا في جسدنا، فإنّ الذي أقام الربّ يسوع سيقيمنا، نحن أيضًا، مع يسوع، لذلك لسنا نفشل، بل ولئن كان إنساننا الظاهر ينهدم، فإنساننا الباطن يتجدّد يومًا فيومًا، لأنّ الضيق

(١٦) إنجيل متى، ٢٥:٤٠.
(١٧) المصدر نفسه، ١٣:٤٤
(١٨) ٢ كو، ٤:٧.

الحاليّ الخفيف ينشئ لنا أكثر فأكثر ثقل مجد أبديّ، إذ لا ننظر إلى ما يرى، بل إلى ما لا يرى، فإنّ ما يرى إنّما هو وقتيّ، وأمّا ما لا يرى فهو أبديّ[١٩].

(١٩) المصدر نفسه، ٤: ٨ إلى ١٨.